قراءة سيميائية في قصة البقرة

في سورة البقرة

* سليمة مدلفاف

ينقسم القصص الموسوي إلى ثلاث مراحل كبرى :

- المرحلة الأولى: من الولادة إلى إتمام الأجل؛
- المرحلة الثانية: مع فرعون؛
- المرحلة الثالثة: مع بني إسرائيل، و هي المرحلة التي ألمت بها سورتا الأعراف، و البقرة خاصة في أسلوب توصيلي تميّز بالجمع بين الدين و القصة، و شهدت حدث بقرة بني إسرائيل.

تبتدئ المرحلة الثالثة من خروج بني إسرائيل من مصر فيتعّين الانتقال في المكان مواصفة قصصية تبعث القصة نحو حيثيات مغايرة للمرحلتين الأولى و الثانية، ذلك أن المقصد من بعثة موسى هو الخروج ببني إسرائيل تحريرا لهم من العبودية التي استكانوا إليها و تحقيقا لوعد إنزال كتاب عليهم يؤسسون به حياتهم الشرعية و الاجتماعية و قد اقتصر المقصوص من هذه المرحلة على رصد علاقة بني إسرائيل بنبيّهم و كيفية تلّقيهم الكتاب، و يمكن تقسيمه إلى: الخروج - و بعد الخروج.

1- الخروج: يتحدد بتجاوز البحر و هو مرحلة انتقالية فاصلة بين لحظتين و قد تعدّى وظيفتي التنقل و الانتصار على فرعون، فضلا عن كونه دالا على القدرة الإلاهية و إرادته إلى وقوعه تحوّلا لمس واقع بني إسرائيل من نواح متعددة، صورته عدد من السور[1] بوصفه هزيمة و انتصارا إذ هو إغراق و إنجاء من الإغراق، و هما صورتان متكاملتان تجرّ إحداهما الأخرى تأتيان متداخلتين، ففي اللحظة التي مثل فيها الإغراق انغلاقا أتى الإنجاء انفتاحا على المرحلة الثالثة؛

---

*جامعة سعد دحلب، البليدة

2- بعد الخروج: لم يكن متوقعا من بني إسرائيل بعد إنجائهم و توريثهم أن يرتدوا و أن يجادلوا موسى أو أن يشكوا فيه و أن يطالبوه بالدلائل المادية؛ فتبيّن أن القوم ذووا عقيدة مهزوزة تعلقت قلوبهم بعبادة المصريين. و قد شهدت هذه المرحلة أحداثا متنوّعة رافقها إشكال الترتيب قبل التيه أم فيه أم بعده، و انطلاقا من آيات سورة المائدة[2] يمكن أن نستدل على أن الوقوع كان سابقا للتيه، إذ هو (التيه) نتيجة عن موقفهم من الجهاد، ترتب عليه إعلان موسى القطيعة بينه و بينهم فدعا الله أن يفرق بينهم واصفا إيّاهم بالفسق، و وفق هذا المنطق في القراءة يجعل الخالدي[3] الأحداث قبل التيه حسب الترتيب الآتي:

1. طلب الإلاه؛
2. تلقي التوراة: إنزال الكتاب – الميقات – عبادة العجل؛
3. طلب رؤية الله جهرة؛
4. نتق الجبل و أخذ الميثاق؛
5. النعم المعيشية؛
6. قصة البقرة؛
7. دخول الأرض المقدسة: التيه؛
8. قصة العبد الصالح.

و بذلك تكون قصة البقرة من الأحداث الأخيرة التي عرفها القصص الموسوي خلاصتها أنّه كان في بني إسرائيل شيخ غني تمنّى بنو أخيه موته ليرثوه فقتله أحدهم و طرحوه في مجمع الطرق و طالبوا بديّته ثمّ ردّوا الأمر إلى موسى عليه السلام فأخبرهم بالأمر بذبح بقرة فشددوا في أوصافها فشدّد الله عليهم[4] و قد اتسق ذكر خبر البقرة مع أنباء بني إسرائيل المذكورة في السورة التي حملت اسم القصة للاهتمام بالخبر و عمق دلالته و تميّزه عمّا ساقه القصص القرآني من أحداث.

تترتب سورة البقرة ثانية السور في ترتيب المصحف، و الأولى في ترتيب نزول القرآن المدني و السادسة و الثمانين[5] أو السابعة و الثمانين[6] في نزول القرآن الكريم، توفرت فيها المواصفات

التي جعلها دارسو القرآن معايير ميّزوا من خلالها بين المكي و المدني، و ممّا نجده فيها على مستوى الموضوعات:

- ذكر الجهاد و أحكام القتال؛
- تفاصيل الأحكام الشرعية؛
- ذكر المنافقين و أهل الكتاب؛
- ذكر إبراهيم و موسى و غيرهما.

و على مستوى الأسلوب:

- طول الآيات؛
- تفصيل البراهين و الآيات (الأدلة) [7].

و مرّد الاختلاف بين المكّي و المدني هو تغيّر المقصد و الانفتاح في الدعوة في المدينة نحو تأسيس مجتمع إسلامي مدني تشبّع بعقيدة التوحيد، و هو على علاقة تصادم مع الآخر تميّز بكونه « أهل كتاب »؛ فاتسعت رقعة التلقي و لم يعد الخطاب محصورا في المشركين، فتعدد المخاطَبون و تنوّعت موضوعات الخطاب، فأسفرت السورة عن ثلاث طبقات من المخاطبين هي:

- طبقة المؤمنين
- طبقة المشركين
- طبقة أهل الكتاب

أمّا المؤمنون فهم الفئة الأكثر انتفاعا بالقرآن؛ و أمّا المشركون فقد تصنفوا صنفين: صرحاء و منافقين، و هم الأكثر عنادا، « ثمّ خصّ بالإطناب أهل النفاق تشويها لنفاقهم و إعلانا لدخائلهم و ردّ مطاعنهم » [8]. و أمّا أهل الكتاب ف« هم أشد مقاومة لهدي القـرآن » [9]؛ و قد توّسع ذكر تفضيلهم بالنعم و فضح مواقفهم اتجاهها، فجلّت السورة انحرافهم عن الحق في عديد من السلوكات المخزية، و كانت قصتهم مع موسى عليه السلام نموذجا ملّما بهـم و جامعا لأخلاقياتهم و رسوله إليهم.

يبتدئ خطاب بني إسرائيل في الآية الأربعين عائدا بهم إلى العهد الموسوي « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُـمْ وَإِيَّـايَ فَارْهَبُـونِ» [10]؛

و يستمر إلى الآية الثالثة و التسعين و قد تخللته قفزات زمنية إلى زمن النزول: « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[11]. لينفتح على مخاطبة أهل الكتاب باعتبارهم متلقين للقرآن مزامين للدعوة المحمدية قصد تحقيق الاعتراف بنبوة محمد عليه السلام من جهة، و الاتعاظ و العبرة من الماضي من جهة أخرى.

و قد تميّزت الآيات القصصية المحددة بالميزات الآتية:

- الإيجاز في القص حيث كادت الآية الواحدة تأتي على مرحلة بكاملها كما هو الأمر في الآية التاسعة و الأربعين « وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ»[12]؛
- توجيه القص توجيها تذكيريا، فقد قامت "إذ" بوظيفة الانفتاح القصصي و بها تمّ استحضار الماضي حيث يتضمن تقديرا « اذْكُرُوا إِذْ»؛
- إيراد النعم حججا على الخصم، ذلك أنّه « جادلهم بالأدّلة الدينية العلمية و إثبات صدق الرسالة بما تعارفوه من أحوال الرسل، و لم يعرّج على إثبات الصدق بدلالة معجزة القرآن... فكان خطابهم هنا بالدلائل الدينية و بحجج الشريعة الموسوية ليكون دليل صدق الرسل في الاعتبار بحاله و بأنّه جاء على وفاق أحوال إخوانه المرسلين »[13].

مجال القراءة القصصية النصية و السيميائية

يبتدئ القصص الموسوي في مرحلته الثالثة من لحظة الإنجاء بتجاوز البحر، مثلت حالة بدئية تبعتها حالات و تحولات كوّنت قصة موسى مع بني إسرائيل، و قد اختلفت مسارها القصصي عن مسار المرحلة الثانية من حيث توزيع الأحداث على مقطوعات مراحل القصة القرآنية، ذلك أنه لا يحكمها المنطق نفسه من حيث الابتداء بإرسال المرسَل إلى قومه فدعوتهم إلى التوحيد ثمّ تبيّن الموقف من ذلك فالخروج إلى الحكم الإلاهي؛ و إذ جاءت مجموعة من الأحداث ذات بعد عقدي أفصح عن تذبذب بني إسرائيل في موقفهم المفترض موجبا من بعثة موسى إليهم. قام القص على إثراء الدعوة و الموقف متداخلين مستندين أساسا إلى ثبات رسولية

موسى المفعلة في المرحلة الثانية، و قد واكب ذلك أحكام تقييمية جرّت جزاء دنيويا مطابقا لطبيعة الممارسات الإسرائيلية:

تتحدد القصة من منظور زمني بوقوع الأحداث قبل التيه ابتداء من الإنجاء و هو ما يعكس امتدادها بين الخروج من مصر و دخول الأرض المقدسة. احتواها فضاء واسع جمع بين الاستواء و الارتفاع و فعّل الأحداث على مستوى الفواعل موسى و هارون باعتبارهما مرسلين، و بنو إسرائيل خاصة، ثمّ السامري، و يمكن توزيع جملة الأحداث المذكورة توزيعات متنوّعة تكشف عن مرونة التشكيل المقطوعاتي، فتترتب المقطوعة القصصية و هي ذات هيمنة حوارية وفقا للتقطيع حسب الجمل السردية، كما تراه اللسانيات النصية في مقاربة النص السردي[14]:

و يغيب موقع « العبد الصالح » لوقوعه بعد التيه و يحتوي التقسيم السيميائي[15] الجمل السردية كالآتي:

ج س 1	ج س 2	ج س 3	ج س 4	ج س 5
الحالة 1	التحول 1	التعزيز	التحول 2	الحالة 2

فيمكننا مقاربة سيرورة الأحداث من منظور التزامن بين الجمل السردية مع الجمع بينها وتكثيفها و إرساء مسار قصصي قائم على التقسيم الثلاثي يحوي تصريف المرحلة الإسرائيلية و يوقف عليها، إذ هو نابع من خصوصية القصص الموسوي مقتصرة هنا على ذكر طول القصة و قيامها على نظام تتالي المراحل؛ و لما سيق الإنجاء معلما رئيسا على التحسن الطارئ على حالات بني إسرائيل نضيف إلى خصوصية الطول ما أفرزه التحسن من تكثيف أدوار بني إسرائيل و وقوعهم عاملا محوريا كان انضباطه و تفانيه في تفعيل التصديق توقعا أكيدا، غير أنّه سار في اتجاه مخالف ترتب عليه أن عرفت القصة مسارا يسعفنا في وصف مراحله الصغرى انسجام النص الدلالي الذي انعكس في إثبات اتسام بني إسرائيل ب:

- الإيمان   - الارتدادات   - الفسق

وافق هذه الدلالات من الناحية الشكلية التي انتظم عليها المسار القصصي:

- الانفتاح   - التفعيل   - الاختتام

و هي مقطوعات تترتب فيها الأحداث السابقة من منظور التزامن في الوقوع و المرور إلى لحظة تالية توثقت صلتها باللحظة السابقة بواسطة تكثيف دور بني إسرائيل، حيث كانت بعض الأدوار أسبابا في الانتقال من مرحلة إلى أخرى -على مستوى العمق خاصة- يفرز هذا التوجه في القراءة آلية المزاوجة بين الأحداث لنخلص إلى التقطيع الآتي:

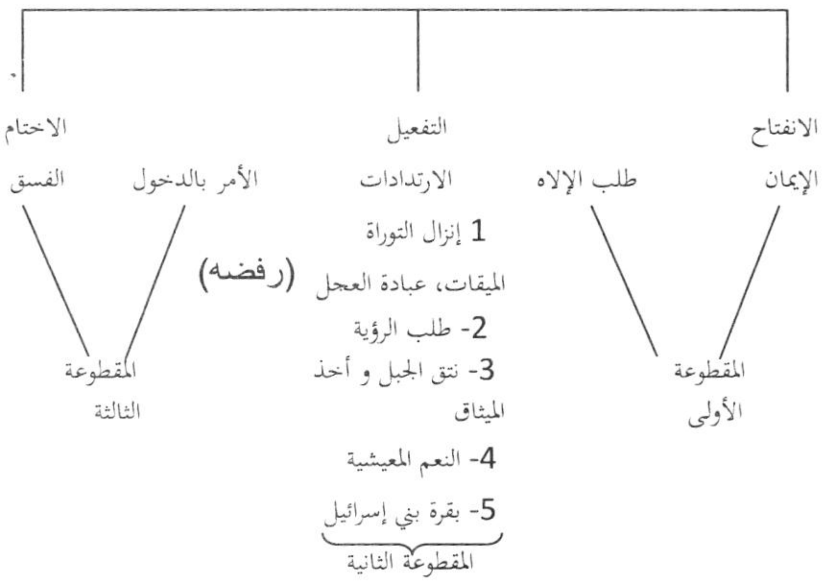

تقع قصة بقرة بني إسرائيل -انطلاقا من التقسيم الثلاثي في المرحلة الثانية، و تمثل على المستوى الشكلي أحد الأحداث المكوّنة للعمل القاضي بتمثيل حركة التفعيل سواء كانت حالات أم تحوّلات، و هي على المستوى الدلالي إحدى صور الارتدادات التي ميّزت السلوك الإسرائيلي الذي امتدت آثاره إلى الزمن المحمدي ذلك أن التعليق الواقع بعد التشريع لهم قضى بعدم الاطمئنان إليهم و الطمع في إيمانهم.

البعد التوصيلي في قصة البقرة

تقع القصة من حيث عجائبية[16] الحدث من المنظور الديني من معجـزات موسى الماديــة، و قد دلّت في الوقت نفسه على القدرة الإلاهية في الإحياء و الإماتة، و تقع من وجهة ثالثة دليلا على البعث، أمّا من حيث قصصيتها فقد انتمت إلى القصص الموسوي؛ و هو النموذج كامل معالم الظاهرة القصصية القرآنية إذ تميز بأنّه قصّ متعدد المساق و مفرد المساق يقوم على خاصيتي الإيجاز و التفصيل فتعيّن بذلك أنّ هناك قصّا موجزا و آخر مفصلا؛ أمّا المفصل فيندرج تحته متعدد الذكر و هو ما وافق مصطلح « المصرف »؛ و المفرد؛ و أما الموجز فيندرج تحته المفرد و المصرّف كذلك، و لتقريب هذه المصطلحات نرسي مفاهيمها التي انبنت على تحديد التصريف القصصي بديلا لوسم ظاهرة التكرار[17]، فتعيّن التصريف بأنّه توصيل الحدث القصصي في أساليب متنوّعة وفق وجهات نظر مختلفة فرضتها المقامات و السياقات و تتحدد المصطلحات الأخرى كالآتي:

- المفصل: هو الذي تمّ توصيله من جوانب عديدة، فتمّ ذكر عدد من الأحداث المتعلقة بالنبي الواحد و لم يقتصر على خبر واحد؛
- المفصل المصرّف: و هو الذي اتسم بتواتره في القرآن الكريم في سور كثيرة و بإيراده في سياقات مختلفة و أساليب متنوّعة موافقة للأغراض و المقاصد التي جيء به لأجلها؛
- المفصل المفرد: و هو الذي اقتصر توصيله على سورة واحدة؛
- الموجز: هو الذي اقتصر على حدث واحد أو حدثين من أخبار النبي الواحد؛

- الموجز المصرف: و هو الوارد في عدد من السور و في سياقات مختلفة موافقة لأغراض السور و مقاصدها؛
- الموجز المفرد: و هو الوارد في سورة ودون تفصيل.

و قد توفرت قصة موسى على جملة الخصائص المذكورة سابقا و هو ما يسمح لنا بضبط مواصفاتها الأولية كالآتي:

- هي قصّ مفصل و مصرف لتوفرها على عدد كبير من الأحداث سيق على امتداد يفوق الأربعين سورة؛
- المصرّف فيها ورد مفصلا و موجزا؛
- قص مفصل مفرد شمل بعض الأخبار المساقة مساقا واحدا مثلما هو الأمر في بقرة بني إسرائيل، و قارون، و مؤمن آل فرعون، و العبد الصالح.

و على هذا الأساس فإن قصة البقرة جاءت في إطار المفصل المفرد عكس تفصيلها قص الأقوال عن طريق نقلها نقلا مبشرا، و سجلّت فرديتها بعدم تواترها في سور أخرى، و قد تمّ توصيلها عن طريق الشكل القصصي الحواري تخللته بعض التراكيب القصصية السردية، فابتدأت القصة تداخلا بين السرد و الحوار ثمّ خلصت إلى الحوار ثم خرجت إلى السرد فاتفق للقسم الأوّل[18] منها التداخل و الحوار تلاؤما مع الخبر القصصي باعتباره كاشفا عن التجرؤ في سلوك سوء التأدب مع الله و نبيّه، كما وافق القص سردا شدة التقريع. و قد أفرز هذا التشكيل انتظام القصة في مقطوعتين أثارتا القضية الشكلية الدلالية هل هي قصة واحدة أم قصتان فجاءت الآيتان السابعة و الستون و الثانية و السبعون فاصلتين بين القص و التشريع، و لعلّ وقفة الزمخشري[19] مع الآيات تسمح بالقول إن الخطاب وجّه القصة و جهتين من حيث الانتهاء بهما إلى فعل الاتعاظ و من حيث إن الوجهتين حجتان على بني إسرائيل، و درس لفئة المؤمنين، فقد تبيّن من جملة الشروح أن سوق القصة كان لأجل التقريع و أن التقريع فيها تقريعان -عند الزمخشري- خصّ الأوّل استهزاءهم و عدم سرعة الامتثال لديهم، و تعلّق الثاني بقتل النفس المحرّمة، فكشف هذا التوجه في القراءة عن القصد من تذكير المعاصرين بمعاصي الأسلاف، أمّا ما يفسّر اعتبار المقصد الوعظي للمؤمنين فهو التعالق بين الزمنين المحمدي و الموسوي و أنّ الغرض

الأسمى هو وجوب تحقيق الاتعاظ عند الفئة المؤمنة حتى لا تنزلق نحو تكثير السؤال على الرسول صلى الله عليه و سلم، و قد صرّحت السورة بهذا مباشرة بع الخلوص من التذكير بالزمن الموسوي، قال تعالى:

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ»[20].

لقد سارت كل آية من الآيتين نحو مقصدية خاصة، يساعد في تتبعها الشكل التوصيلي الذي وردت فيه حيث امتزج القص في الآية السابعة و الستين بين السرد و الحوار و قد تكفل بنقل التدخلات نقلا مباشرا، فكان هذا المظهر النصي القصصي مصدرا لبقية التحاورات الجامعة بين الطرفين بالتناوب في سرد أقوالهما، و في المقابل فقد شقت الآية الثانية و السبعون بواسطة القص سردا طريق التشريع فخلا الخطاب الإلاهي من أدنى إشاريات الذوات البشرية في سياق تحاوري بينهما حيث تكفل السرد بنقل أجواء الخلاف في قضية الاختلاف في القتيل« فَادَّارَأْتُمْ ».

لقد توزع التداخل في الآية الأولى كالآتي:

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ / (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً / قَالُوا / أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا / قَالَ /

سرد حوار سرد حوار سرد

أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)/ » (آ 67).

حوار

قابلت الضآلة التي رود عليها السرد حيث اقتصر على ذكر أفعال القول لافتتاح التحاور: (قال - يقول - قالوا) كثافة دلالية أكسبته إيّاه "إذ" فقد عكست مرجعية إحالية ذات طابع زمني عاد بنا إلى حدوث الفعل في الزمن الموسوي، فأسست الوصل بين لحظتين: ماضية فيها الحسّ القصصي، و حالية و هي مزامنة لفترة النزول و التي التزمت بأداء الوظيفة التذكيرية الرامية لتحقيق مقصدين: الكشف عن عمق قسوة القلب الإسرائيلي و شدتها؛ و تنشيط الإيمان لدى المسلمين بعدم توقع إيمان أهل الكتاب و قد تميّزوا بجملة من التقييمات الخلقية السلبية أسندتها إليهم الآيات الموالية للقصة.

أما الآية الثانية و السبعون فقد عملت على التوجه المباشر إلى مخاطبة الموضوع المعني بأمر الذبح فأسندت إلى "إذ" التنيشط و فتح الزمنين على بعضهما بعض، ذلك أن الخطاب في الآية هو « على نحو الخطاب في الآيات السابقة على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم »[21]. و إذا تأطر الحدوث بالزمن الموسوي و لم يكن الغرض من القص الاستحضار فحسب زاوجت الآية بين الفعل الماضي لنقل الفعلين الأساسين للقصة و جاورتهما باسم الفاعل و الفعل المضارع في الزمن الماضي لأجل إرساء تحكم البعد الديني في القصص:

« إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا / وَاللَّهُ مُخْرِجٌ [مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ]/».

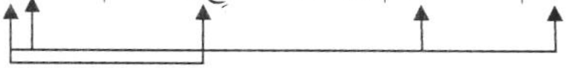

يتداخل البعدان القصصي و الديني بشكل لافت أحدثه البناء الزمني للآية و قد أقرّ أوّلا الصراع بين الذوات الإنسانية فأكد اقتراف فعل القتل، ثمّ نزع تصويرنحو تنازعهم و تدافعهم بعضهم بعضا، فأفاد الفعلان القتل و الدرء إعطاء ملمح الصراع الحاد بينهم، و كانت الخلاصة أن كتموا الأمر فجاء ذلك دالاعلى تورطهم و رغبتهم في التستر؛ و قد سار الخطاب نحو الاستقبال حتى يتحقق المقصد من سوق القصة و حتى يكون الإنهاء بعد تجلّي الحقيقة بإخراج المكتوم، و هو ما تعلّق بأجزاء الخطاب الموالية.

أما الجزء الحواري في الآية فقد ارتبط بالزمن الموسوي و اضطلع بوظيفة التقديم للحادثة و تحديد مدار النبإ فيها، فكان الموضوع الأساس هو ذبح البقرة من منظور كونه مثيرا للاستهزاء باعثا على استمرارية التوصيل في الشكل الحواري.

استقرت المقطوعة الحوارية و قد جاءت متراصة أحكم ارتباط آياتها ببعضها « الطريقة المألوفة في حكاية المحاورات و هي طريقة حذف العاطف بين أفعال القول »[22]. فتسلسلت أفعال السرد المخصصة لأفعال افتتاح التحاورات و التي تحددت هنا في فعل "قال" في تصريفاته: يقول - قال- قالوا: يتجاذبه: الله تعالى؛ موسى؛ بنو إسرائيل. و اللافت في محتويات الأقوال و قد شكلت انبناء المقطوعة موضوعاتياانها تضمن نقل موسى لقول الله تعالى، فشغل موسى بذلك وضعيتي الوسيط و المفوّض في ذات الوقت تأتيّا له من اكتسابه لكفاءة الاصطفاء بالرسالة و التخصيص بالتكليم. و قد أفرز هذا قيام الحوار على أسلوب النقل المباشر للأقوال الذي يتميز بتوظيف الفعل في الزمن المضارع، و هو المظهر الذي جاءت عليه غالبية الأفعال الواردة في المقطوعة و قد اتفقت سردا مع الجمل الإسمية الواصفة للبقرة.

مجلة اللغة و الأدب ـــ

و قد شغل المحاورة موضوع واحد ابتدأ عاما و غير مشترط الأوصاف « أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » لكنّ بني إسرائيل أسهبوا في المطالبة بالتوصيف للموضوع و هو ما يفسر مجيء المحاورة في تبادل شكّل قصة منتهية، و بهذا يكون أثر الدلالة عميقا في إيراد القصة في النظام الذي احتواها.

لقد عكست البنية الشكلية للمقطوعة القائمة على بعث المحاورة و تمديدها بإعادة السؤال بعض المواصفات الكاشفة عن الذوات المتحاورة و علاقاتها و قد احتكمت كلّها إلى « حجة السلطة »[23]. فقد كان لزاما على قوم موسى الإذعان للأمر الإلاهي « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ » دون أن يفتحوا مجالات المماطلة و تعطيل الإئتمار، و على الرغم من ذلك فقد انتهت القصة إلى إرساء التشريع في الاحتكام إلى الأمر الإلاهي بضرب الميت ببعض البقرة.

الأفعال و حالات الأهواء

تستدعي المقاربة السميوسردية لقصة البقرة عرض نقطتين :

1. وضع القصة في سياق ترتيب وقوعها لتوضيح موقع الأمر بالذبح من المسار العام للآيات، و قد ترتبت الأحداث كالآتي[24]:
   أ. الحدث الأوّل: « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » الآية 72.
   ب. الحدث الثاني: « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿67﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿68﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿69﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿70﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿71﴾ ».
   ت. الحدث الثالث: « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿73﴾ ».

و نضيف إلى الآيات المخصصة للقصة بتقريعها الآية الرابعة و السبعين إذ هي تعجيب[25] من شدّة قسوة القلوب المعاينة لتكرر الآيات.

2. ثمّ إن الشكل القصصي الحواري الذي كشفت الوقفة السابقة معه بعض مظاهره يعين على تصنيف قصة بني إسرائيل مع البقرة بأنها قصة موضوع احتكموا فيه إلى أهوائهم و قد ابتدأ أمر إلاهيا كان واجبا على المرسل إليه /بني إسرائيل/ تنفيذه لتحقيق فائدتين: الطاعة حتى يبلغوا و يرتقوا إلى مرتبة السامعين الطائعين، و الكشف عن القاتل لأجل تحقيق العدل الإلاهي و إرساء القيمة الاجتماعية من باب الحفاظ على النفس.

تجلي النقطتان المظهر السطحي لمسار البرنامج السردي فيتحدد الأمر بالذبح برنامجا مساعدا لتحقيق الكيفية التي تمّ بها الإحياء، و قد وقع واجب أدائه (الذبح) و تنشيط حركة الأفعال على المرسل إليه /بنو إسرائيل/ الذي اعتلى أو كان عليه أن يعتلي وضعية الفاعل المنجز حتى تتعمق دلالة التقريع التي أفصحت عنها التجليات اللسانية، و يمكن تمثيل الحركة السردية من المنظور السيميائي كالآتي:

حالة 1	تحول 1	تعزيز	تحول 2	حالة 2
« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » آية 72	وَإِذْ قَالَ مُوسَى قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » من الآية 67 إلى جزء من الآية 71	فَذَبَحُوهَاوَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ جزء من الآية 71	◌ُقُلْنَااضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىوَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الآية 73	ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ... الآية 74

يخضع هذا التوزيع إلى الترتيب المنطقي للوقوع لكن الخطاب و قد قام على التقديم و التأخير أراد أن يفرز دلالته الخاصة فتوّجهت القصة كالآتي:

تحول 1	تعزيز	حالة 1	تحول 2	حالة 2
67 – جزء من 71	الجزء الثاني من الآية 71	الآية 72	الآية 73	الآية 74

تستند قراءة التوزيع الثاني على ما يوّفره منطق الوقوع و هو ما يشكل دعامة من دعائم القول بأن المقصد هو الذي تحكم في الشكل الثاني، فأوّل ما يثيره ترتيب الوقوع هو التعالق المتين بين الحالة الأولى و التحول الثاني على تباعد توقيتيهما، ذلك أن العلم بالغيب في الأمرين: العلم بالقاتل و العلم بإخراج خبره مستقبلا، قدّر الأمر بالذبح و ما تبعه من تماطل و اعتراف قسري، و لأن الأساس هو الإخفاء و التستر على /المحرَّم/ عند فاعله؛ و الإجلاء عند صاحب الخطاب جعل الله لهم مهلة كان في وسعهم أن يكشفوا أثناءها عن طاعة أو بعض ندم فقد كان التحوّل الأوّل و التعزيز: (الأمر بالذبح و التماطل فيه، و الاعتراف القسري) كفيلين بتوقع التحوّل الثاني، و لما سار هذا الأخير نحو مساءلة الجانب العقلي لديهم، و قد اتصف من خلال السياق الذي ورد فيه بأنه غير راجح تبعه إصدار الحكم الإلاهي عليهم بما اقتضته أفعالهم الإجرامية.

و لما كان المقصد التقريعي تقريعين مؤدبين، بدأ بالأهون إثما منهما لارتباطه بسلوك لا يقيم اعتبارا للمرسل و للوسيط فهو من جانبه الحضاري و الثقافي ألغى الحدود الفاصلة

مجلة اللغة و الأدب ـــ

/الباطن/	VS	/الظاهر/
/المكتوم/	VS	/المخرّج/
/المحرّم/	VS	/الحلال/
/الإماتة/	VS	/الإحياء/

قام التحوّل الأوّل مقام التفعيل تمثل في الأمر الإلاهي « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » و بموجبه تعيّن الذبح واجبا لتحقيق الإرادة الإلاهية و هو ما كشف عنه المسار الخطابي اللاحـق، لقد أرست الآية الآمرة العلاقتين الآساسيتين:

- الله — موسى
- موسى — بنو إسرائيل

و تضمنتا العلاقة الثالثة: الله — بنو إسرائيل. و في الوقت الذي مثل فيه موسى ذات فاعلة مؤتمرة بنقل الأمر الإلاهي كما سمعه محددا الموضوع المأمور به تحديدا مأمورا به دون توصيف فاحتل بذلك وضعية الوسيط في تمرير الأمر بالفعل، تحددت علاقته ببني إسرائيل فوقعوا موقع المرسَل إليه المبلغ بموضوع البقرة، و قد كان متوقع منه الانتقال إلى وضعية الفاعل المنجز بحكم المعرفة الدينية المحققة لديه، خاصة أن الموضوع مقيّم في ذاته، إذ هو مأمور به من المرسِل الذي هو الله تعـالى. و كان من شأن هذا الامتلاك و افتراض المرور إلى الوضعية الجديدة أن يحققا لبني إسرائيل الاتصال بالكون المؤمن المصدق للرسول غير الشاك في وساطته في نقل الأمر و التحديدات.

يتصف المرسل إليه برفض الأمر و قد جعل منه هذا الموقف عاملا خلا من الرغبة و هو ما عكس صراعه ضد الأمر بالذبح فأنشأ لذاته مسعى مغايرا توسّل فيه إظهار الرغبة في تقييم الموضوع تقييما ماديا حدّد له عددا من المواصفات التحسينية صبها في أبعاد مختلفة. فانتقل الموضوع من حيوانيته العادية التي تحقق الأمر الإلاهي إلى موضوع مثالي اشترطوا له معايير ترتقي به (بالبقرة) إلى مقام الأمر الإلاهي -في منظورهم- قابل المرسَل إليه الحجة بالوجوب بالإيهام

بتأسيس مشروع منبن على قوّة حجاجية كامنة في الأوصاف المثالية، و قد قوّى هذا التقابل الصراع بين /الوجوب/ باعتباره تحقيقا لقيمة الموضوع الذي يترتب عليه أمر ربّاني آخر تأخر الإعلان عنه؛ و بين/ عدم الرغبة في الفعل/ باعتباره ردّ فعل رافض.

لقد صعّد المرسَل إليه ضغط انفعاله اتجاه الأمر حتى لا يتحوّل إلى الفعل فكشف عن حالة ركود ملازمة لهُ، و هو هنا محافظ على حالة اللافعل خاصة أنه انحرف بالفعل إلى الوصف الذي لم يكن ليغير من قيمة البقرة الأولى، غير أن الإرادة الإلاهية انتهت به فاعلا مجبرا على الفعل «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » فباء مشروع التقييم الرامي إلى إيجاد الحجة في عدم الامتثال إلى الفشل.

لقد جهد/بنو إسرائيل/ حتى يمتنعوا عن المرور إلى الفعل فواكب أفعالهم وحالاتهم سلمك لساني و آخر جسديّ تبيّن منه تذبذبهم و دخولهم في حالة استهوائية جمعت بين الاستهزاء و المماطلة، فألغوا الجديّة، و نسبوا إلى موسى الرغبة في تصييرهم مستهزءا بهم. فجاء ردهم فاضحا لمكنونهم، وهم من منظور قولهم عامل له الميل للأن يصبح موضوعا للسخرية والعبث،فالابتداء بتوقع الاستهزاء من رسول الله إليهم في غير محله، له ميزة الكشف عن قوة لاستعداد على المواجهة والجرأة فيهم .فمثل قولهم اعترافا صريحا بعدم التصديق وهو ما أكد أن الموضوع الإلاهي غير مرغوب فيه مما أربك العلاقة بين موسى باعتباره مفوضا والمرسل إليه (الذي فوّضه) فنشأ التباعد بينهما حيث عمد موسى إلى دفع الاتهام معترضا عليه ونافيا الكون الذي صنفه فيه /بنوإسرائيل/ " قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين".

و في مقاربته الهزء بالجهل اعتراف منه بسلبيته و بأنه غير مقبول الاتهم سلوك لساني و آخر جسدي تبيّن منه تذبذبهم و دخولهم في حالة استهوائية جمعت بي لدى العقلاء و منهم فحدد لذاته مرتبة أعلى منهم تخصصه بالعلم بما هو واجب و بما هو أليق للرسول ، و قد طبع هذا التوجه في إرساء الانفعال الموسوي تأكيد النفي باللجوء إلى العياذ بالله ممّا أراده له المرسل إليه ذلك أن العياذ هو أعلى مراتب الرغبة في نفي الأمر الذي لا يغلب عليه إلا الله[26]. و أصرّ موسى على النفي فاستعان بتركيب لساني مزج فيه بين الفعل و إرادة عدم الكون فقال: « أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » مقترنين طبعا بالعياذ بالله، و هو ما يسمح بالقول بوضوح الرؤية لديه و أنّه لا مجال للتأثير من وجهة التوكؤ على المكر و الاستدراج نحو تعطيل الأمر الإلاهي عن طريق المغالطة في فهم الأمر و أخذه مأخذ المزح و الاستخفاف. و هو السلوك الذي بعث المحاورة على الامتداد الذي أثبت بعض التناقض في تكوين بني إسرائيل، إذ هم ابتداء يرون الأمر مزحا في غير مقام المزح، و هم بعد ردعهم بالعياذ يتراجعون و يطالبون بتثمين موضوع غير مرغوب فيه.

لقد تحوّل /بنو إسرائيل/ إلى وضعية فاعل حالة متوتر فعلى الرغم من الرفض فهو يرغب على التعرف على موضوع جعل له حدودا لم يملأها معرفيا فمثل من هذه الوجهة فاعل حالة

مجلة اللغة و الأدب ـــ

	حالة الانفصال	حالة الاتصال	حالة الهوى
1	« ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » انفصال عن الماهية	« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » تحقيق طلب المعرفة –اتصال بها–	« فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ » فاعل مأمور عليه الطاعة: فاعل مزجور
2	« ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا » انفصال عن اللون	« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » تحقيق الاتصال بالمعرفة	« تَسُرُّ النَّاظِرِينَ » - حالة سرور - فاعل معجب
3	« ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا »	« إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ » تحقيق الاتصال بالمعرفة	« إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ » « الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » « فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ »

تحتاج حالات الهوى إلى تفجير في رباطها مع التحول الاتصالي القائم على تصويرية منح المعرفة التي قامت بتقويم نظرة الاستهزاء التي انطلقت منها القصة، و هو ما يسمح بالقول إن حالات الهوى عكست هذا الاضطراب في الذات الإسرائيلية، خاصة أن توصيلها جاء بأسلوبين:

- من منظور الخطاب
- و من منظور الفاعل الهويّ

لقد كشف الخطاب عن توقع حدوث تغير في علاقة بني إسرائيل و هم في وضعية فاعل الحالة مع موضوع البقرة و قد تعّينت ببعض الأوصاف التي طالبوا بها فأبان التركيب الأوّل « فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ» في صيغته الآمرة في رتبتين: الأمر الصريح « فَافْعَلُوا » و إيراد المفعول بلفظ الأمر ذاته تعيينا له: « مَا تُؤْمَرُونَ » عن حصول ما تعللوا به لعدم الامتثال فأصبحوا فاعلا تجدد أمرهم بالذبح فكان تجديده تأكيد له و زجرا لهم عن التعنت[27].

و من هذا المنظور فإن الذي نتوقعه هو الخضوع للأمر غير أن الفاعل و قد تمسك برؤيته لموضوعه على أنه غير مرغوب فيه فإن المعرفة المتحققة لم تخفف صراعه و لم تمر بـــه إلى الفعـــل، و لم تقلل درجة التوتر لديه، و قد بعث به هذا الوضع إلى دفع المحاورة فازداد تشددا في النفور أظهره في حالة كذب فطالب بتثمين آخر أرساه على محور اللون، و قد كلفته حالة الاتصال التي مرّره إليها المرسل وجوب المرور إلى حالة كون مغايرة للأولى تعكس التطور الإيجابي في العلاقة مع الموضوع، ركّز فيها الخطاب على الإعلاء من حاسة البصر « تَسُرُّ النَّاظِرِينَ »، و هو ما يفسر الانتقال إلى حالة انبساط كان اللون مثيرا لها، يرافقها بالضرورة إقدام /إنجاز/ على الذبح، ذلك أن السرور هو « لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم أو عن اعتقـاد حصولـه و ممّا يوجبها التعجب من الشيء و الإعجاب به »[28]، فيتعلّق المسرور أو المعجب بالشيء الذي هو موضوع سروره و إعجابه. يسير بنا هذا المنطق نحو توقع الاستسلام عند الفاعـل المماطـل، و أن يرتد عن التعنت فيحصل له التقويم الذاتي لسلوكه، غير أن قوة الغواية لديه ساعدت على دفع آخر سلك فيه مسلك الاجتماعيين مثله الموقع الثالث (من الجدول أعلاه).

لقد أظهر فيه قوته في تكثيف الظاهر و إظهاره في غير صورته الحقيقية، فبعد الموقفين المخزيين مع المرسَل توّجس من غضبه فعمد إلى استباق الاعتذار عن تكرير السؤال الذي يوقع في نفس موسى السآمة فأضاف « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » فكان القول اعترافا منه على طبيعة علاقته بالبقرة، فالمنصوص عليه بقرة غير مقيدة بالأوصاف تشبه و لا ضرر في هذه المشابهة و لا أثر لها في الحكمة من ذبحها. فيأتي الاعتذار بالمشابهة فاضحا للابتعاد عن الرغبـة في الالتـزام و حتى لا يتجلى هذا الكون إلى السطح تفنن /بنو إسرائيل/ في الإخفاء و التستر خلف أقوالهم فجاء قولهم الأوّل: « إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ » قائما على توسل المشيئة الإلاهية لتحقق الاهتداء و لكن المقصد منه هو مجاملة لموسى، فمن المؤكد أنهم توقعوا الجواب الفصل المحقق للمعرفة المطلوبة فينفذ بعد ذلك ما يحتجوا به لتمديد المماطلة، فعملـوا إلى إصـلاح التوتـر و الارتباك الذي تسببوا فيه لموسى فكان قولهم بالامتثال فتبررت من منظورهم كثرة السؤال، تأكد ذلك من جملتهم الأخيرة « الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ »، إنها اعتراف صريح بأن القيمة ليست في

المواصفات لأنها تحققت كلها، و إنما هي في صدق موسى، و هي حالة رافقته من انفتاح المسار القصصي إلى نهايته، فانبنى آداؤه في نقل الكلام الإلاهي على الصدق في الامتثال أثبته قاعدته في المسار الفعلي المؤسسة على نفي الكون الجاهل.

لقد سار الاعتراف القسري المنتزع بمصداقية الأمر بالذبح بالقصة نحو الاختتام و توقع حصول الرضا عند فاعل طبع ذاته بالتمرد، و هو ما يسمح بتحقيق البرنامج المساعد لأجل المرور إلى إحياء الميّت غير أن المرسل إليه و قد أوقعه الخطاب تحت رقابته التامة بحكم الخبرة الإلاهية بكوامن الذوات و ظواهرها أثبت عليه التثاقل في الأداء: « فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ».

الإحالات

1- من السور الذي ورد فيها ذكر الخروج: البقرة، الأعراف ، يونس، إبراهيم، الإسراء و طه.
2- سورة المائدة، 20 - 26.
3- صلاح الخالدي: *القصص القرآني: عرض وقائع و تحليل أحداث*، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الجزءان 2 و 3، ط 1، 1998.
4- ابن كثير، *قصص الأنبياء* تحقيق: أبو عمار مراد بن عبد الله، دار العدنان للطباعة، ط 1، د.ت، ص 302، 303.
5- بدر الدين الزركشي، *البرهان في علوم القرآن*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل بيروت، 1988، 194/1.
6- الطاهر ابن عاشور، *تفسير التحرير و التنوير*، دار سحنون للنشر و التوزيع، 202/1.
7- صبحي، صالح، *مباحث في علوم القرآن*، دار العلم للملايين، بيروت، ط 11 ، 1979، ص 183، 184.
8- الطاهر ابن عاشور: 203/1.
9- نفسه.
10- سورة البقرة، الآية الأربعون.
11- سورة البقرة، الآية الثالثة و التسعون.
12- سورة البقرة، الآية التاسعة و الأربعون.
13- ابن عاشور، المرجع السابق، ور، ال 203/1

14- Voir Jean Michel, Adam,
- *Le récit*, P.U.F, Paris, 3 ed, 1991.
- *Le texte narratif, Traité d'analyse textuelle des récits*, Nathan, 1985.
- *Lest textes, types et prototypes : récit description, argumentation, explication et dialogue*, 3ed, Nathan, Paris, 1997.

15- Denis Bertrand, *Précis de sémiotique littéraire*,, Nathan, Paris, 2000. Voir aussi : 1- Algirdas Julien Greimas, *Du Sens 2 Essais sémiotiques*. Editions du Seuil , Paris ,1983 et Algirdas Julien Greimas et Jacques Fontanille : *Sémiotique. Des Passions. Des états de choses aux états d âmes*, Editions du Seuil ;Paris 1991.

16- اختلف المفسرون في كون هذه القصة قصة واحدة أم قصتين، ينظر في القضية:
الزمخشري، *الكشاف*؛ دار الكتاب العربي، ط 3، 1987، 148/1 – 155.
الرازي، *التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب*، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1 ، 2000: 105/3/2 – 117.
ابن عاشور، المرجع السابق، 546/1 – 562.
عبد الوهاب النجار، *قصص الأنبياء*، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ص.ص 253 – 298.

17- تناولت دراسات كثيرة ظاهرة التكرار في القرآن الكريم.

18- تنقسم المقطوعة إلى قسمين: 1. من الآية 67 إلى الآية 71
2. من الآية 72 إلى الآية 74.
19- الزمخشري، المرجع السابق، 154/1.
20- سورة البقرة، الآية 108.
21- ابن عاشور، المرجع السابق، 547/1
22- ابن عاشور، نفس المرجع، 548/1.
23- ينظر في تحليل القصة تحليلا تداوليا في كل مستوياته: عائشة هديم، *تداولية التفاعل القولي في نماذج من القرآن الكريم*, رسالة ماجستير,جامعة الجزائر,2007, ص.ص175-193.
24- الشوكاني، *الفتح القدير*، دار القلم، بيروت، د.ت، 104/1.
25- ابن عاشور، المرجع السابق، 562/1.
26- نفسه، 1/ ، 548.
27- الشوكاني، المرجع السابق، 101/1.
28- ابن عاشور، المرجع السابق، 553/1.